مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13ع 02.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

طغيان العلم والسير نحو فناء البشرية

The tyranny of science and the march towards the destruction of humanity

محمودي خليفة Mahmoudi Khelifa khelifafilo@gmail.com	فلسفة	جامعة وهران 2 محمد بن أحمد/ الجزائر
DOI : 10.46315/1714-013-002-003	ORCID: /	

الإرسال: 2024/01/26 **القبول**: 2000/05/24 **النشر**: 2024/06/16

**

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى النظر في طغيان العلم (جانبه السلبي)، نتيجة التطور الذي أحدثه في مختلف المجالات، حيث خلق ديناميكية حيوية للحياة الإنسانية. وخلص الإنسان من مشاكل كثيرة، كانت تعانيها البشرية. حتى بلغ الأمر إلى هندسة الإنسان وراثيًا. لكن هذا التطور الملحوظ لم يبق في الجانب الإيجابي فقط. وإنما تعداه إلى النقيض من ذلك بأن أصبح يهدد وجود الإنسان بالفناء. إن طغيان العلم واعتبار نفسه السلطان الوحيد للمعرفة الإنسانية. جر عليه ويلات كبيرة، بأن أصبح لا يهتم بكرامة الإنسان، في المقام الأول، ويجرب على الإنسان كما يجرب على المادة الجامدة، وأصبح حسب تعبير بونكاريه الحياة هي الموت، فتساءل الفلاسفة حول مصير الإنسان إزاء طغيان العلم دون ضابط. وفي مقدمتهم هابرماس عندما تساءل ماذا سيفعل الإنسان إزاء الحياة التي قدر له أن يعيشها؟ ووقف بول فيرابند ضد العلم الغربي، الذي لا يحترم الإنسان. وهي الفكرة نفسها التي يناقضها هوسرل حول أزمة العلم الأوروبي. وكما نجد أرنست بلوخ يذهب إلى أن العقلانية المشوهة التي تتحكم في العلم المعاصر تسلبه خاصيته المنتجة الخالصة لخدمة الإنسان فهل طغيان العلم زوال للبشرية؟

كلمات مفتاحية: العلم؛ الهندسة الوراثية؛ الاستنساخ البشري؛ الذكاء الاصطناعي؛ العلموية.

Abstract:

The development brought about by science in various fields has created a vital dynamism for human life. Man got rid of many problems that humanity was suffering from. Until it came to genetically engineering humans, and avoiding genetic diseases. However, this remarkable development did not remain on the positive side only, but rather went beyond that by threatening human existence with annihilation. The tyranny of science and its consideration of itself as the only authority for human knowledge brought great calamities upon him, by becoming indifferent to human dignity in the first place. It tests on him as it does on inanimate matter, and life has become death. Philosophers wondered about the fate of man in the face of the uncontrolled tyranny of science.

Habermas, for instance, asked what will man do about the life that he was destined to live? Paul Feyerabend stood against Western science, which does not respect man. It is the same idea that Husserl contradicts about the crisis of European science. Ernest Bloch also argues that the distorted rationality that controls contemporary science robs it of its exclusive productive property to serve man. Is the tyranny of science the demise of humanity?

Keywords: Science; Genetic Engineering; Human cloning; artificial intelligence

**

***- مقدمة:**

التطور العلمي الرهيب الذي عرفه العالم المعاصر . في مختلف المجالات العلمية. قد ساعد الإنسان في الارتقاء والتطور، وتجاوز المشاكل التي تواجهه. سواء في العالم الخارجي من تذليل عقبات الطبيعة. بأن أصبح سيدًا عليها ومالك لها بلغة ديكارت (René Descartes). أو على المستوى الذاتي بتجاوز الأمراض المستعصية. كما حدث في علم الهندسة الوراثية. لكن هذا التطور العلمي فاق المحدود وتحول من مساعد للإنسان على الحياة، إلى جالب للفناء، ويهدد البشرية بالزوال.

نجد التطور الذي عرفته الهندسة الوراثية (Genetic Engineering)في مجال البيولوجيا. ساعد الإنسان في تخليصه من الأمراض الوراثية المستعصية. لكن فيما بعد تحولت إلى آلة لفناء البشرية. بعد أن طغى استعمال هذه العلم في التجريب على الفيروسات. وسعي الدول العظمى إلى السيطرة على العالم باستعمال الحرب البيولوجية، ولعل كورونا واحدة منها. وهذا ما طرحه هابرماس (Jurgen Habermas) في مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبرالية. فتحول هذا العالم بمعية الفاعل السياسي {تعبير هابرماس}، لتقنية تهدد الوجود البشري في نوعه.

كما نجد الذكاء الاصطناعي (Intelligence artificielle)الذي يعتبر تقدم علمي كبير. ساعد الإنسان كثيرًا في حل مشاكله سواءً على مستوى البيئة {تجنب خطر الكوارث، من خلال التنبؤ بها}، أو على مستوى الحياة العادية. بأن وفَرَ المعلومات والبيانات بشكل كبير. سهلت على الإنسان مصاعب الحياة. لكن الاستعمال المفرط للذكاء الاصطناعي دون وازع أخلاقي جر على الإنسانية ويلات كبيرة جدًا. تمثلت في اختراق البيانات الشخصية، والقرصنة المعلوماتية للدول والبنوك مما حول هذه التقنية إلى جانب سلبي يهدد الحياة الإنسانية، وتحولت كذلك إلى آلة للإنتاج الغباء بدل الذكاء. وهذا ما يحدث لدى الطلبة في الجامعات. بأن يوفر له البحث جاهزًا. ويعتمد كليًا على هذه التقنية. فتخلق في المستقبل عقولًا لا تفكر ولا تنتج بذاتها. ولعل ستيفن هوكنج (Stephen Hawking) على حق عندما قال: "الذكاء الاصطناعي أسوء ما حدث للبشرية".

نتيجة هذا التطور العلمي في مختلف المجالات. خلق نوع من الدوغمائية المطلقة للعلم، أو ما يعرف بالعلموية، فتحول العلم إلى سلطة دون ضابط أخلاقي طغى على الحياة البشرية. فجرته بخطى ثابتة نحو الهاوية بتعبير موران (Edgar Morin). ونفس الفكرة نجدها عند بول فيرابند (Paul Feyerabend) في وقوفه ضد العلم الغربي الذي لا يحترم الإنسان. وهي الفكرة نفسها التي يناقضها هوسرل(Edmund Husserl) حول أزمة العلم الأوروبي. ونجد أرنست بلوخ (Ernst Bloch) يذهب إلى أن العقلانية المشوهة التي تتحكم في العلم المعاصر تسلبه خاصيته المنتجة الخالصة لخدمة الإنسان.

مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13ع 02.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الإشكالية:

وعليه نتساءل على النحو التالي. هل يصبح التقدم العلمي دون ضابط إيتيقي فناء للبشرية؟. وهل يمكن للإنسان أن يتجاوز خيبات العلم المعاصر؟.

وللإجابة عن هذه الإشكالية. تناولنا أربع عناصر أساسية، أولاها: الهندسة الوراثية، وذلك من أجل معرفة هذا التطور العلمي في مجال البيولوجيا، هل كان في خدمة الإنسان أو أنه حاد عن مساره، وتحول إلى العكس من ذلك. وثانيا: تناولنا الاستنساخ البشري باعتباره تطور علمي كبير في مجال البيولوجيا لنتأكد هل العلم وفق هذا التطور فناء للبشرية أو لا؟. وثالثا: من خلال العودة إلى الذكاء الاصطناعي باعتباره قمة التطور العلمي المعاصر. وبحثنا في غايات هذا العلم هل هو مفيد للبشرية أو له وجه مظلم خفي؟. والمحطة الرابعة كانت نتيجة لهذه التطورات العلمية. بأن أصبح العلم طاغيًا على كل أنماط المعرفة الممكنة. وهو ما يعرف بالعلموية. {يستخدم المصطلح عادة بشكل ازدرائي للإشارة إلى الاعتقاد بالتطبيق الشامل للعلم، دون المعارف الإنسانية الأخرى}.

المنهج:

ولقد اعتمدنا على المنهج التحليلي النقدي، من خلال تحليل بعض منجزات العلم، وأثرها على الإنسانية. ونقد أهداف العلم ونتائج هذه الأهداف على الإنسان. ومحاولة ضبط التطورات اللاأخلاقية للعلم، وإعطاء حلول لها.

1.. الهندسة الوراثية وأخلاق الإنسانية :

تناولنا للهندسة الوراثية **Genetic Engineering** ليس من جانب علمي بحت. أي كيف يقوم علم الوراثة. فهي من اختصاص البيولوجيين والأطباء. ولكن تناولنا للهندسة الوراثية من خلال نتائج هذا البحث العلمي. أي بلغة كانط (Emmanuel Kant) نبحث في تمثلات هذا العلم. وهو البحث في الجانب التطبيقي لتطور هذا العلم وأثره على الإنسانية.

"إن المنعرج البيواِتيقي هو ما اقتضاه التوظيف المحكم للنقد الذي يظل يراجع باستمرار الأحكام المطلقة السائدة في الفكر التأملي، وهو يتجاوز صفات الانغلاق التي رسخها الاستعمال الأداتي للعقل. قد استدعي هذا التحول إلى جملة من المشكلات الراهنة التي تتعلق بالأخلاق الجديدة التي تبحث في الجينوم، وكل ما له علاقة بعلم الوراثة" (الناصر، 2022، صفحة 14).. إن هذا الأفق يسعى إلى مراجعة مناهج وأدوات التقدم العلمي، وخاصة الهندسة الوراثية.

فالهندسة الوراثية بمعناها البسيط هي علم معاصر في مجال البيولوجيا، ظهر بعد اكتشاف الحامض النووي المنزوع الأوكسجين DNA على يد واتسون وكريك 1953. وهي "نقل مقاطع من الحمض النووي لكائن حي ما. وإيلاجها في حمض كائن آخر لإنتاج جزئي هجين. ومن ثمة القدرة على التحكم بالصفات الوراثية للكائن الحي عن طريقة مجموعة من الوسائل العلمية، تمكن من تعديل

أو تبديل المادة الوراثية" (العزيز, س، 2007، صفحة 33، 34). وبالتالي فإن الهندسة الوراثية هي بحث بيولوجي، الغرض منه تعديل وتحسين الحياة الإنسانية (بمعناها البيولوجي). وتجاوز خيبات الطبيعة، إنطلاقًا من خلل جيني حدث للإنسان.

لكن لا بد أن نشير منذ البداية أن علم البيولوجيا المعاصر، وخاصة في مجال الهندسة الوراثية، قد حقق تقدمًا هائلًا، في تخليص الإنسان من أمراض كثيرة كانت تعصف بوجوده. ومن "خلال هندسة الوراثة، أو هندسة الجنات بوجه خاص، وبفضل دراسة علم الأحياء الجزيئي. فأضحى قادرًا على تمييز الأمراض الناتجة عن عيوب وراثية، وبوسعه أن يتعرف ويشخص بدرجة شبه يقينية صحة النسل المتوقعة. وذلك بفحص الزوجين المقبلين على الزواج" (الحفار, س، 1984، صفحة 88). إن مثل هذه البحوث الطبية قد خلصت الإنسان من الأمراض الوراثية المحتملة. وقد تسعى الهندسة الوراثية إلى تغيير بعض الشفرات الوراثية سواءً بزيادة في السلسلة أو بحذف الشفرة التي تحمل المرض. وبالتالي ساعدت الإنسان في التخلص من أمراض محتملة كثيرة أطالت في عمره. وحسنت من صفاته الجسدية. بأن تضيف للسلسلة الوراثية شفرات تغير الطول ولون العينين والشعر ... إلخ. "وتعتبر الهندسة الوراثية أحد أهم فروع التقنية الحيوية... التي ساهمت في تذليل العقبات أمام العديد من التطبيقات الصحية المتعلقة بالرعاية الطبية وكذلك في الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي كما يتوقع أن تساهم في تقديم حلول عملية لكثير من المشاكل البيئية" (قنديل, ص، 2007، صفحة 19، 20). فكان بذلك علم الوراثة ساحة أمل جديدة تساعد الإنسان على حياة أفضل وأطول.

فالهندسة الوراثية تطورت في جانبين المعالجة الوراثية الجزئية. التي ساعدت الإنسان في التخلص من بعض الأمراض المحتملة وراثيًا. والثانية الحالمة إلى تغيير صفات الفرد برمته. "وتدخل في وراثة الكائن الإنساني كله، فإنها تثير معنى (أفضل العوالم) على طريقة هكسلي Thomqs Henry (Huxley. وتمزج الأوهام الجمعية الرهيبة بخطر سياسة حياتية حريصة على تحديد شروط وجود النوع البشري" (روس, ج، 2001، صفحة 114). وهذا الجانب هو الذي يخيف الإنسانية. وهذا ما ظهر جليًا في قول هابرماس(Jurgen Habermas): "فالبحث حول الجنين والتشخيص الذي يجري على البويضات في مرحلة التخصيب قبل وضعها في الرحم. قد أشعلا العقول. ذلك أنهما يشيران إلى خطر له علاقة بما يسمى مجازًا بالتدجين البشري" (هابرماس, ي، 2006، صفحة 6). فهذا التخوف له ما يبرره عقليًا وعلميًا.

لنعد إلى ما كنا فيه. أو ما طرحناه منذ البداية. هل توقف علم الهندسة الوراثية عند هذا الحد فقط؟ وهي مساعدة الإنسان على حياة أفضل وأطول؟. يبدو أن الأمر يتعدى ذلك إلى ما هو أخطر. فما ينتظر "إنسان القرن الواحد والعشرين من تقدم في ميدان استخدام الوسائل الكيميائية والبيولوجية والطبية من أجل تغيير شروط الحياة العضوية للإنسان. وليس المقصود من ذلك

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

مجرد تغيير حياته النفسية، وقوته وصحته وطول الحياة لديه، بل المقصود بذلك ما هو أبعد وأخطر، وهو تغيير البنية الوراثية للكائنات الإنسانية في المستقبل" (الحفار, س، 1984، صفحة 90). قد يبدو الأمر بسيطًا للوهلة الأولى. لكن الأمر معقد جدًا، ومفزع للدرجة رهيبة. فهذا التغيير الوراثي إذ استمر بطريقة لا عقلانية. ودون ضمير للعلم. قد يقضي على السلالة الإنسانية الأصيلة أو الأولى. وبالتالي السير نحو زوال الإنسانية. ناهيك على أن التعديل الوراثي يجري في مخابر عالمية متعددة. من طرف البيولوجيين والأطباء، على أشخاص في مخبر. هذه التجارب لا تحقق النتائج الإيجابية دائمًا وخاصة في البداية. مما يذهب جراءها مئات الأبرياء. وهذا التخوف ما عبر عنه العالم ستانلي كوين بقوله: "والذي كان يثير قلقي وهو أن بعض الاستعمالات التي يستخدمونها كانت أخطارها غير معروفة" (القصيمي, ن، 1993، صفحة 200). فالعلماء في حد ذاتهم لا يعرفون في البداية نتائج هذه التجارب.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقط وإنما تعداه أن أصبح علم الوراثة خاضع للسوق الليبرالية، ولا يفرق بين الحدود العلاجية والتدخلات التي تهدف إلى غاية تطويرية. بل تترك الأفضلية الفردية لصناع السوق اختيار الغائيات التي تتحكم بالتدخلات المعدة لتعديل السمات الوراثية "إن من يعمل على تحويل الحياة البشرية إلى أداة، أو من يمز بين حياة تستحق أن تعاش من حياة لا تستحق ذلك. إن من يقوم بذلك يكون قد دخل طريقًا لا نقطة نهاية فيها. إنها المنحدر الزلق" (هابرماس, ي، 2006، صفحة 28).

وعليه، يكمن في هذا العمل زوال قدسية الإنسان ككائن يحمل القداسة. ويصبح جسم الإنسان أشبه بساحة تجارب لا تحترم فيه خصوصيته. ككائن بشري. وتصبح حسب {تعبير بونكاريه}. الحياة هي الموت، فالإتيقا المعاصرة تسعى إلى تجاوز هذه الفجوة في عدم احترام قدسية الإنسان. لأن العلم المعاصر وفق هذه البحوث يجعل من الإنسان حيوان ضمن مملكة الحيوانات وينزع عليه قدسيته، ويصبح العلم وفق هذا التصور لا يحترم إنسانية الإنسان. وبذلك نعود إلى السؤال الأول الذي طرحناه في بداية المقال هل العلم في خدمة إنسانية الإنسان؟ يبدوا أن الأمر يفوق ذلك. عندما نقنع الزوجين مثلًا بإجراء فحوصات طبية قبل الزواج لتأكد من عدم انتقال الأمراض الوراثية للأولاد مستقبلًا. فإذا تبين أن أحد الزوجين يحمل تلك الأمراض. فإن الطبيب ينصحهم بعدم الزواج. لسبب وجود علة في أحدهم. فكيف يعيش ذلك الشخص؟ وكيف تكون حالته النفسية؟. وكيف يعيش داخل مجتمع ينظر له بعين المصاب؟. وكأنه عالة عليهم أو محط نظرة الشفقة. وفي هذه النظرة من الآخر تسلب الذات وجودها (حسب سارتر). وهذا الاستلاب قد يؤدي به على أن يقدم على الموت (الانتحار). وعليه بدل أن نصحح في مرض محتمل لدى مولود لم يوجد بعد. قضينا على إنسان موجود بالفعل.

فهذا التقدم العلمي في مجال الوراثة دون ضابط إتيقي. وفرض سلطان العلم على الإنسانية، قد يأخذنا إلى اللاإنسانية الفعل. وبالتالي يجب علينا تحكيم أخلاق الحياة .Bioétique في المجال الطبي. كسلطان على هذه السلطة. وأن نتحمل المسؤولية الأخلاقية اتجاه أجيال الإنسانية القادمة. 'كما قال بذلك (هانز يوناس Hans Jonas). التي نجرب عليها دون ضابط أخلاقي. والبحث على أشكال الاحترام اتجاه الأنسان، سواءً القادم أو الإنسان الحالي في حد ذاته.

فالهندسة الوراثية كبحث علمي، لم تتوقف عند حدود تخليص الإنسان من بعض الأمور المرضية. وإنما تعداه إلى السعي لإنتاج الإنسان داخل المخابر. من خلال تلقيح بويضة وزرعها في رحم امرأة. أو الرحم الاصطناعي. قصد إنجاب جنين. لكن داخل هذه العملية في استنساخ البشر تهديم لحياة البشر. فهو بحث علمي لا يؤمن بالأخلاق ولا القيم ولا ترتيب المجتمع. فهو من خلال هذا الخلق الجديد قد قضى على مجموعة من القيم. أولا عاطفة الحب. لأن الأم لم تصبح إلا وعاء تحمل الجنين لمدة تسعة أشهر فقط. ولا توجد رابطة بينها وبين الولد المولود حديثًا. فأولى علاقات الاعتراف التي تحدث للبشر تكون بين الأم وإبنها. من خلال رابطة الحب. وهذا ما ذهب إليه أكسل هونيث(Axel Honneth). كما أنه قضى على مفهوم الوالدية ولم تعد لها مجال ضمن هذا الخلق الجديد.

كما نجد أيضًا أنه قضى على مفهوم الأسرة. ولم يعد لها مجال. وبالتالي خلق مجتمع جديد لا يؤمن بالروابط الأسرية. ومنه غياب التكافل الأسري والرحمة والمودة والتعاون. أي خلق جيل أناني يعرف ذاته ويحب نفسه فقط. فهل بقي أي مفهوم إنساني لهذا الإنسان الجديد؟. وهل يمكن أن نطلق عليه فعلًا كلمة إنسان بمعناها الإيتيقي.

صحيح أن الهندسة الوراثية سعت إلى إطالة حياة الإنسان بتخليصه من الأمراض. لكنها في المقابل أفرغت حياة الإنسان من غايتها الإنسانية. فهل الغاية من الوجود الإنساني هي البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة فقط؟. ويصبح تعريف الإنسان حيوان/كائن محب للحياة فقط (الحياة بمعناها البيولوجي). أو أن الغاية الإنسانية تتعدى ذلك. إلى الوجود من أجل الآخر وتحقيق كينونة الإنسان بأن يكون إنسانًا بالدرجة الأولى. وليس مجرد آلة تطيل في عمر عملها.

هذا الضبط الأخلاقي للبحث العلمي في مجال الهندسة الوراثية. له مبرره الإتيقي كما ذكرنا من قبل. وله مبرر الخوف من مستقبل هذه البحوث، على حياة الإنسان في الجانب السلبي. فالمخاوف مشروعة. فحتى العلماء في هذا مجال كانوا يتخوفون من نتائج هذه البحوث نتيجة شعورهم بالمسؤولية إزاء الناس. كأن يحدث مثلا تسرب لجرثومة وراثية خارج المختبر وتتحول إلى مرض يدمر البشرية. كما أن البحث العلمي لم يعد يقتصر على التجارب العلمية السلمية فقط بل تعداه إلى أن أصبح سلاح في يد الفاعل السياسي حسب تعبير هابرماس(Jurgen Habermas) . كما فعلت الحكومة الأمريكية عندما دعمت هذه البحوث من خلال البحث في الجراثيم المسببة للأوبة. قصد

معرفة خفاياها وتحولها فيما بعد إلى وسيلة للحرب والسيطرة. وهنا مكمن الكارثة الفعلية. لأن الحرب البيولوجية أشد خطرًا وفتكًا من الأسلحة النووية. ولعل فيروس كورنا واحد من هذا النوع.

2.. الاستنساخ وفناء الإنسانية:

الحديث عن الاستنساخ البشري **(Clonage Humain)** كبحث عملي دقيق يصعب نوعًا ما شرحه علميًا. لأنه يحتاج إلى تفصيل علمي كبير. لذا يمكن أن نعرف الاستنساخ فنقول هو بحث علمي يمكن من خلاله "أن تنشأ الذرية من خلايا المخلوق الجسدية لا الجنسية" (صالح, ع، 1981، صفحة 35). وهذا التعريف رغم بساطته. يوحي بتطور علمي رهيب وصلت إليه البشرية في الفترة المعاصرة. فما كان معروف أن عملية التكاثر والتوالد عند الكائنات تكون بطريقة جنسية بين الذكر والأنثى في الغالب. لكن مع الاستنساخ لم نعد بحاجة للحيوانات المنوية. وإنما عن طريق خلية جسدية مأخوذة من أي مكان من جسم الكائن. يمكن من خلالها خلق مولود جديد طبق الأصل من الكائن الذي أخذناه منها. وهذا النوع من البحوث يوحي بكثير من الرهبة والخوف من المستقبل. جراء هذا التغير في نواميس الطبيعة.

الاستنساخ البشري يرمي إلى تحسين النسل. والوصول إلى الإنسان الخارق (أو الإنسان الأعلى الذي نادى به نيتشهFriedrich Nietzsche ، بطريقة فلسفية. وكأن الاستنساخ كبحث علمي يدعم الافتراض النتشوي عمليًا). لكن هذا الفعل مدان بلغة جاكلين روز(Jacqueline Rose). لأنه يهدد النوع البشري الأصيل. وإن طبق دفعة واحدة قد يقضي على الأدمية. تقول روز: <<هكذا ندرك أن تحسن النسل أمر مدان إدانة صارمة، وهو يرمي إلى تحسين العرق النقي وإلى حذف الآخرين>> (روس, ج، 2001، صفحة 117). فهذا التغيير في الطبيعة الإنسانية قد يجر إلى وجود إنسان لا إنساني. أو الشبيه بالإنساني. وهذا ما جعلنا نضع العنوان بمسمى الاستنساخ وفناء البشرية.

ومنه فالاستنساخ البشري. أو ما يعرف بالاستنساخ التناسلي، وهو الأكثر خطرًا على البشرية حتى بلغ بـ هنري آتلان بتسميته بجريمة ضد الإنسانية بقوله: <<عدة أسباب تساهم في جعل تطور هذه الممارسة للتناسل في المرحلة التي نحن فيها غير مقبولة، لأنها تخاطر بسحبنا إلى نكوص أخلاقي خطير في تاريخ البشرية... عندما يتعلق الأمر بالاستنساخ التناسلي، بجريمة ضد الإنسانية>> **(أتلان و آخرون، 2016، صفحة 23)**. تكمن هذه الجريمة من زاويتين الأولى متعلقة بالوقت. والثانية بالطبيعة الفردية للإنسان. ففي الأولى العلم الحالي ليس له كل الضمانات بأن هذه العملية قد تصدق مائة بالمائة. فعملية الاستنساخ على الحيوان وليست دائمًا ناجحة، وتنتج جنين سوي وكامل. ففي الكثير من التجارب يتشوه الجنين. وبالتالي لو طبق على البشرية فهناك خرق واضح لقداسة الإنسان. وخاصيته كإنسان. وهذا جرم أخلاقي ويعاقب عليه القانون العالمي.

والثانية فإن عملية الاستنساخ تقضي على تفرد الإنسان وتميزه. لأنها تخلق نسخة طبق الأصل من الأجنة لا تختلف في شيء. وفي هذا مكمن الخطورة. لأنها تقضي على صفة الإنسانية التي تميز الشخص عن غيره. أي أنها تضرب مبدأ الهوية، التي يتمتع بها الإنسان. فالتفرد خاصية إنسانية يتميز بها عن الغير. فمع الاستنساخ التناسلي تندثر هذه الميزة. وتصبح إبادة ضد الإنسانية.

إن الحل يمكن في الرقابة الأخلاقية والقانونية للعلم "إن ما يضعه العلم تقنيًّا بتصرّفنا، يجب أن يكون خاضعًا لقرابة أخلاقيّة، تجعلنا بالمقابل وللأسباب معياريّة، غير قادرين على التصرّف بها على هوانّا" (هابرماس, ي، 2006، صفحة 33، 34). هكذا فقط يمكن أن نتجاوز خطر التقدم العلمي المعاصر في مختلف مجالاته التقنية.

3.. الذكاء الاصطناعي (Intelligence artificielle) وتزايد الغباء الإنساني:

قد يبدو العنوان من الوهلة الأولى يحمل في طياته بذور فنائه. إذ وفق قاعدة منطقية بسيطة كيف يزداد الإنسان غباءً أمام الذكاء الاصطناعي الذي هو صانعه؟. فكيف يتفوق المصنوع عن الصانع؟. فهذا يبدو حكمًا ساذجًا وغبيًا. إذ ليس من المنطق في شيء القول بمثل هذا الحكم. لكن مع التصور الفلسفي يغدو الساذج البسيط معقدًا. ويتحول الهامش إلى الخط الناظم في دراسة الظاهرة.

لا سيما عندما نجد من أعظم علماء الفيزياء المعاصرين ستيفن هوكينج يقول (Stephen Hawking): "الذكاء الاصطناعي أسوء ما حدث للبشرية". فهل يمكن للذكاء الاصطناعي أن يفكر ويتصرف مثل البشر؟ (Jassim, 2021, p. 4) فهذا القول لكبار العلماء المعاصرين، لا يؤخذ محمل الترف الفكري، والتصور النظري. بل يجب البحث في صلب هذا القول. فستيفن أراد أن يتحدث عن تمثلات الذكاء الاصطناعي على البشر، الذين يستعملون هذه التقنية. وما قد يسببه من مشاكل على الذكاء البشري. لأن الإنسان سينسحب من استعمال عقله بجعل هذا الذكاء الاصطناعي يفكر بدلًا عنه.

"فالذكاء الاصطناعي يعد واحد من أهم التحديات التي لم تواجه البشرية مثلها من قبل" (ويتباي،، 2008، صفحة 7) لكن قبل الحديث عن هذا الوجه المظلم، صحيح أن الذكاء الاصطناعي قد ساعد الإنسان كثيرًا في حياته اليومية. إذ يقلل عليه الجهد والوقت. ويحل مسائل صعبة العمل عليها يدويًا. وساعد الإنسان من خلال علم البينات، في تجاوز الكثير من الأزمات البيئية التي قد تهدد الحياة على هذا الكوكب. من خلال التنبؤ بها. وإعطاء حلول لها. تسهل على الإنسان تجاوز هذه الكوارث. كما يساعد الباحثين على إعطاء كم كبير من المعلومات والمعارف وتبويبها وتنظيمها. مثل Chat GPT. لكن نحن لا ننفي إيجابيات هذا التطور العلمي. بل نثمنها. لكن في المقابل يجب التنبه لمخاطر هذه التقنية على البشرية. وهو مجال بحثنا.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

عن مشاهدتنا فيلم (الماتريكس Matrix)، وحديثه عن تطور الذكاء الاصطناعي. نجد ء هذا الفلم حمل مخاوف العلماء والفلاسفة معًا، إذ بيّن أنه يمكن للذكاء الاصطناعي أن يؤدي إلى فناء البشرية؟. وهو تخوف مقبول ومنطقي. إذا طغيان العلم في استعمال هذه التقنية دون هوادة. ودون ضابط أخلاقي يحكمه. سيدمر البشرية.

حيث أن هناك تجربة قام بها العلماء على مجموعة من الروبوت من خلال تجربة التواصل فيما بينهم من خلال الفيسبوك. باستعمال اللغة الانجليزية. ونجحت عملية التواصل. لكن فيما بعد وجد العلماء أن هؤلاء الروبوت جمعوا كلمات من الإنجليزية غير مفهومة لدى القارئ وتعطي إشارات لديهم. مما شكل خطر التلاعب بالبيانات. فأوقفوا التجربة. لأن العلماء تخوفوا أن تحدث اتصالات بين الروبوت لا نفهمها. وبالتالي لا يمكن تحليل التواصل بينهم. ومنه تحدث الكارثة. وهو الخوف الذي نقله لنا فلم الماتريكس. في أن تخرج الروبوت عن التحكم الإنساني. ويسعى إلى القضاء على الإنسان وهنا مكمن الكارثة الحقيقة.

حيث أن الذكاء الاصطناعي يهدف إلى فهم الذكاء الإنساني، من خلال برامج تعمل على محاكاة السلوك الإنساني المتسم بالذكاء (بونيه، 2023، صفحة 13) . هنا مكمن الخطر لو أن الذكاء الاصطناعي فاق الإنسان في الذكاء، وقلد سلوكه "لأن الاهتمام ببشر أفضل، سيكون دائمًا أكثر أهمية من صناعة آلات أكثر ذكاء" (BAUM, 2021, p. 68) .

ناهيك على أن الذكاء الاصطناعي وإن لم يتفوق على الإنسان ويتجاوزه باعتباره صانعه ويتحكم فيه. إلا أنه في مجالات البحث العلمي قد ساعد الباحث بكم هائل من المعلومات. لكن في المقابل سيخلق لنا جيل لا يستطيع حتى وضع خطة مبدئية لبحث صغير يعطى له داخل القاعة. (وهذا ما يحدث حاليًا في الجامعة مع الطلبة) لأن كل المعلومات والخطة والإشكالية يعطيها له الذكاء الاصطناعي. أي يفكر بدلًا عنه. وبالتالي خلق جيل معاق ذهنيًا. لا يفكر ولا ينتج حلول. لأنه سيعتاد على الأشياء الجاهزة. فيصبح الذكاء الاصطناعي آلة للغباء البشري بدل الذكاء البشري. ومنه يصبح خيبات أمل على الإنسانية بدل خدمتها. ألم يتحول العلم ممثل في الذكاء الاصطناعي، إلى ويلات تهدد العقل البشري بالفناء. أو بالغباء؟.

4.. العلموية وزوال التأمل البشري:

التقدم الذي أحدثه العلم في المجالات السابقة التي تطرقنا إليها وغيرها من المجالات خلق نوع من الاستعلاء المعرفي للعلم. أو أظهر ما بات يعرف بالعلموية. أي إيمان العلم بنفسه فقط وحصر المعرفة في العلم. وإزاحة كل المعارف الإنسانية الأخرى التي تخرج عن نطاقه. وأصبح العلم في نظرهم يحل كل مشاكل الإنسانية. وأصبحت "تسيطر عليه القناعة بأن كل ما هو موجود. وكل ما يستجد في هذا العالم محكوم بقوانين، باستطاعة العلم الإحاطة بها ومعرفتها. كما بإمكان التقنية العلمية السيطرة عليه" (كوليو, ك،

1995، صفحة 40). هذا الاستعلاء للعلم لا يكف على أن يكون قنبلة موقوتة ستهز مضجع الانسان المعاصر، وتحمله على الفناء. لأن الإيمان بمكانية العلم في تصحيح مسار الإنسان في كل شيء، سيقود إلى منعرجات خطيرة، قد تقضي على نوعه. ذلك أن حصر المعرفة في العلم وحده قد يقضي على أهم ميزة إنسانية، وهي التأمل في الأشياء بمنظار آخر.

ومكمن هذه الكارثة تظهر عندما اتحدت العلموية مع التقنية بتخطيط الفاعل السياسي. وحطت من أنماط المعرفة الأخرى. وطالت حتى المجال الثقافي. فتحولت الثقافة إلى أيديولوجيا. وأصبح العلم يسطر على كل شيء. وهو المعيار الوحيد للحقيقة والنجاح. وفي هذا صدد يقول فيرابند: "الاعتقاد أن مجموعة وحيدة من المعايير العلمية كالعقل والعلمي، والنظرة العلمية للعالم، التي تقود دائمًا إلى النجاح. ليست سوى أسطورة"(Paul, F, 2014, p. 16) . وبالتالي هذا الاعتقاد هو سبب مآسي الإنسان عبر التاريخ البشري. وتبدأ عندما يظن الإنسان أنه المالك الوحيد للحقيقة. فيحدث العنف والدمار نتيجة هذا الاعتقاد بامتلاك الحقيقة.

وهذا الطرح تظهر معامله عند هابرماس عندما صرح قائلًا: "العلموية... وتحديدًا الاقتناع بأنه لن يكون بوسعنا بعد الآن أن نفهم العلم أنه شكل معرفة ممكنة. إنما علينا أن نطابق بين العلم والمعرفة. والوضعية التي طرحت مشروعها مع كانط تستخدم عناصر كل من الإرث التجريبي والعقلاني من أجل ترسخ إيمان العلم بمصداقيته الكاملة. وبدلًا من أن تتأمل هذا الإيمان، لتشرح بنية العلوم على قاعدته" (هابرماس، المعرفة والمصلحة، 2001، صفحة 11). فحسب هابرماس هذه السلطوية للعلم خلقت أيديولجيا دوغمائية حجبت التأمل الذاتي الإنساني للمعرفة. وبالتالي قتلت أهم منهج جلب العلم في حد ذاته. وكأن العلم يقضي على ذاته نتيجة هذه الدوغمائية. ومنه القضاء على المستقبل المعرفي للبشرية. "هذه القناعة أوصلتنا إلى نتيجة معينة، أن التمييز بين العلم واللاعلم ليس مزيف فقط. بل يشكل عائق أمام تقدم المعرفة" (Paul, F, 1979, p. 346). وداخل هذا النطاق زوال فكرة الإنسان باعتباره كائن عاقل يفكر ويتأمل.

ولتجاوز خيبات النظرة الدوغمائية العلمية. يعيد هابرماس للنقد الفلسفي مكانته كضامن لسد هذه الهوة للعلموية. من خلال التأمل الذاتي والنقد. بقوله: "وحالما يحدث ذلك تنهار العقبة الموضوعية لنظرية العلم. وحالما نتنازل عن إضفاء الأنطولوجيا المضللة، نستطيع أن نفهم نسق مرجعية علمي ومعطى، على أنه نتيجة تفاعل الذات العارفة، مع الحقيقة الفعلية" **(هابرماس، المعرفة والمصلحة، 2001)**. وعليه يصبح التأمل الذاتي والنقد كخاصية إنسانية، أمل لتجاوز خيبات العلم. ومنه تجاوز فناء البشرية. لأن الإنسان دون تأمل ذاتي محكوم عليه بالموت والزوال.

إن النظرة الاستعلائية للعلم. خلقت من زاويتين. الأولى نتيجة التقدم المادي الذي حققه العلم على أرض الواقع كوسائل. والثانية نتيجة تصور عقلي متمثل في من يجب أن يحكم؟. يرى أصحاب العلم. أن نتائج العلم تفرض واقعيا أنه يجب أن يحكم. وهي الفكرة ذاتها التي رفضها كارل بوبر في السياسة. واعتبر هذه الفكرة خاطئة من الأساس. بقوله: "من يجب أن يحكم؟. منذ حوالي خمسين عامًا اقترحت رفض هذا السؤال وشطبه كلية لأنه يتعلق بمشكلة خاطئة، قادت إلى حلول خاطئة" (بوبر, ك، 2008، صفحة 88). فسلطة العلم في الحكم على كل المعرفة الإنسانية انطلاقًا من العلم ذاته. هو حل خاطئ. لذا كتب كانط

مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13ع 02.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

العقل في حدود الدين. لذا لا يمكن للعلم أن يكون السلطان وحده في المعرفة. ولهذا يقول فيرابند في كتابه وداعًا للعقل: "أؤكد أنه لا يوجد أي مبرر موضوعي يجعلنا نفضل العلم والعقلانية الغربية عن باقي الأنماط الأخرى".(Paul, Adieu la raison, 1996, p. 27) لأنه بهذا الاستعلاء جر الإنسانية إلى مزالق لا أخلاقية كبيرة جدًا. ولعل التجريب على الأجنة وعدم احترام قدسية الإنسان واحد من مزالقه المتعددة.

ولعل إيديولوجية العلم التي تكلم عنها هابرماس تمثل مزالق العلم المتعددة. "إن التقنية ذاتها سيطرة على الطبيعة والإنسان. سيطرة منهجية، علمية، محسوبة وحاسبة... مثل هذا الهدف من السيطرة مادي وينتمي إلى حد ما إلى صورة العقل التقني ذاته" (هابرماس, ي، 2003، صفحة 45). فالكارثة تكمن فإن هذا النوع من السيطرة لا يظهر للعيان بصورة جلية. لأنه يأخذ شرعيته مما يحققه على أرض الواقع كمنتجات مادية تساعد الإنسان في يومياته. لكنه بالمقابل يسلب الإنسان إنسانيته ووجوده الفعلي كإنسان. وهي الفكرة نفسها التي يناقضها هوسرل حول أزمة العلم الأوروبي. وكما نجد أرنست بلوخ يذهب إلى أن العقلانية المشوهة التي تتحكم في العلم المعاصر تسلبه خاصيته المنتجة الخالصة للخدمة الإنسان.

***- خاتمة:**

ختامًا يمكن القول بأن طغيان العلم سير نحو فناء البشرية. له ما يبرره نظير نتائج العلم كممارسة. إذ العلم خدم البشرية بطرق متنوعة، ونقلها من البداوة إلى الحضارة. وخلصها من مشاكل كثيرة ومتنوعة. وتجاوز قسوة الطبيعة التي هددت الإنسان. لكن في المقابل تمثلات العلم دون قيد أخلاقي جر الإنسانية إلى شفى حفرة من العدم والهلاك. وخاصة في الفترة المعاصرة حين تطور العلم بشكل رهيب. والخطأ لا يكمن في العلم في حد ذاته، كقوانين ومعادلات. وإنما الكارثة تكمن في تداعيات استعمال العلم من طرف الإنسان كفاعل علموي. ويتجلى هذا الحكم من خلال:

1. الهندسة الوراثية كعلم ساعدت الإنسان كثيرًا، أن خلصته من الأمراض الوراثية المستعصية. وحاولت الإطالة في عمره وتحسينه مظهره. لكن في المقابل عندما تغطت الأنانية في استعمال هذا العلم دون هوادة واحترام للكرامة الإنسانية. تحولت الهندسة الوراثية إلى أسلحة فتاكة تستعملها الدول المتقدمة في فرض سلطانها، عن طريق هندسة الفيروسات للتحكم في زمام العالم. وعليه تحول العلم من خادم للإنسان بأن خلصه من المراض المستعصية. إلى آلة فتاكة تهدد وجوده الإنساني على هذا الكوكب. لأن الحرب البيولوجية أكثر فتكًا من الحرب النووية. ولعل فيروس كورونا واحدًا من هذه الحروب.
2. كما نجد الاستنساخ البشري عندما ظهر في المرة الأولى كآلية لحفظ النوع النباتي الجيد من الاندثار. وتحسين النسل. تحول في ما بعد بفعل الفاعل الإنساني. إلى سلاح يسعى استنساخ البشر. وخلق جيل لا يمد بصلة لأي بعد إنساني. لكي يصبح هذا الجيل سلاح في يد من يديرون العالم. وتحول العلم من خادم للإنسان إلى متحكم فيه. فطغيان العلم دون ضابط أخلاقي وقانوني يهدد البشرية بالفناء.
3. إن الذكاء الاصطناعي هو مرحلة متقدمة جدًا من البحث العلمي. ساعد الإنسان كثيرًا في جمع البيانات والمعطيات. وساعدته في تجاوز أزمات الطبيعة بتحليلها قبل حدوثها مثل الزلزال والبراكين

وغيرها. وتبادل المعلومات بسرعة ودقة متناهية. لكن هو الآخر تحول إلى آلة تنتج الغباء الإنساني بدل الذكاء. وذلك نتيجة تمادي الإنسان في استعمال هذه التقنية في الجانب السلبي. ولعل الحرب السيبرانية خير دليل على هذا القول.

إن نتيجة هذه الإنجازات العلمية المتقدمة. واعتداد العلم بنفسه. وفرض سلطانه دون هوادة. ودون ضابط أخلاقي. جر على الإنسانية كوارث لا حصر لها. وإن تطاول الإنسان في استعمال العلم دون ضمير إنساني، سيسير بالإنسانية إلى الفناء المحتوم في يوم ما. لذا فطغيان العلم، نتيجة إيمان العلم المفرط بنفسه (العلموية) زوال للبشرية. وعلى الإنسان المعاصر أن ينظر للعلم كوسيلة لخدمة الإنسان وليس كغاية لفرض سلطانه على بني جنسه. والحل يكمن فيما بينه إيمانويل كانط من قبل، في الضمير الأخلاقي الإنساني. وأن يكون العلم من أجل الإنسان وفي خدمة الإنسان. وإلا عدنا إلى طرح السؤال الأول من جديد ما الغاية من العلم؟.

**

قائمة المصادر والمراجع:

1. Paul Feyerabend .(1996) .*Adieu la raison* .paris :éditions du seuil.
2. Paul, Feyerabend .(1979) .*contre la méthode* .paris :éditions du seuil.
3. Paul, Feyerabend .(2014) .*la tyrannie de la science* .paris :éditions du seuil.
4. HOWIE BAUM .(2021) .*AN INTRODUCTION TO ARTIFICIAL INTELLIGENCE* .
5. safaa Jassim .(2021) .*Artificial Intelligence* .
6. آلان بونيه. (2023). *الذكاء الاصطناعي واقعه ومستقبله*. الكويت: المجلس الوطني للفنون والآدب.
7. الحفار, سعيد. محمد. (1984). *البيولوجيا ومصير الإنسان*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدب.
8. العزيز, سعد. عبد الله. (2007). *أحكام الهندسة الوراثية*. السعودية: دار كنوز إشبيلية.
9. القصيمي, ن. (1993). *الهندسة الوراثية والأخلاق*. الكويت: المجلس الوطني للفنون والآدب والثقافة.
10. بلاي ويتباي، . (2008). *الذكاء الاصكناعي*. مصر: دار الفاروق.
11. بوبر, كارل. (2008). *درس القرن العشرين*. لبنان، الجزائر: الدار العربية للعلوم وناشرون، منشورات الاختلاف.
12. روس, جاكلين. (2001). *الفكر الأخلاقي المعاصر*. بيروت: عويدات للنشر والتوزيع.
13. صالح, عبد الحسن. (1981). *التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان*. الكويت: المجلس الوطني للفنون والآدب.
14. عبد اللاوي الناصر. (2022). *معضلة الإنساني وسؤال القيم*. تونس: يافا للبحوث والدراسات والنشر والتوزيع.
15. قنديل, صالح. عبد الحميد. (2007). *التقنية الحيوية في حياتنا المعاصرة*. الرياض: جامعة ملك السعود.
16. كوليو, ك. (1995). *ماكس فيبر وتاريخ*. لبنان: المركز الثقافي العربي.
17. هابرماس, يورغن. (2003). *العلم والتقنية كإيديولوجيا*. ألمانيا: منشورات الجمل.
18. هابرماس, يورغن. (2006). *مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية*. لبنان: المتبة الشرقية.
19. هنري أتلان، وآخرون. (2016). *الاستنساخ البشري*. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
20. يورغين هابرماس. (2001). *المعرفة والمصلحة*. ألمانيا، مصر: منشورات الجمل، المجلس الأعلى للثقافة.